الفصل الرابع

الخوف من الموت

الفصل الرابع

الخوف من الـــــموت

تمهيد

سؤال يطفر إلى سطح العقل البشري، ويلح على الإنسان بصفة دائمة، حتى ليكد الذهن، ويرهق الأعصاب.

إذا كانت هذه هي طبيعة الحياة، وسنة الوجود، أن كل كائن حي – وليس البشر فقط – مصيره في النهاية إلى « فم الحوت » فلماذا نخاف أشد الخوف من الموت؟

لماذا نرتاع منه كل هذا الارتياع،ونود لو استطعنا أن نجد إكسير الخلود أو أن نصنعه بأيدينا إن لم يكن لهذا الإكسير وجود.

كل يوم ترى أعيننا الرحلة الحزينة إلى العالم الآخر، ونكتوي بنار المحنة كل يوم نشاهد مسيرة الموت، وهو يتحسس بأصابعه القاتلة أجساد البشر ليأخذهم إلى حيث لا يعودون، ونبكى على موتانا وعلى أنفسنا!

ذا كنا من ناحية نشاهد قسوة الحياة، ومصائب الكون، والشرور الفيزيقية والميتافيزيقية[1]، ومن ناحية أخرى، نرى سكون المقابر، وصمت الموتى وراحة الموت فلماذا نؤثر أن نشتري العذاب بالراحة، والمصائب بالسلام؟!

حين يتساءل قس بن ساعدة الأيادي (ت نحو ٦٠٠م) عمن وردوا حياض الموت: «مالي أرى الناس، يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا؟» [2]، فإن

---

(١) الشر الفيزيقي malphysique : يراد به المصائب التي تحل بالناس على شتى صور الآلام / كالقتل والحرق والغرق ؛ والشر الميتافيزيقي mal metaphysique : يراد به المقدورات التي يكره العبد أن تحل به وهي صادرة من يد القدر مباشرة كولادة المشوهين ، أو فاقدي العقل (أندريه كريسون : المشكلة الأخلاقية ص٢٤٣).

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ / ١٦٨ ، أبو حاتم السجستاني : المعمرين من العرب ص٧٠.

الخوف الشديد من الموت وراء هذا التساؤل.

هذا أبو حيان التوحيدي، يقدم لنا رؤيته: « العمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق [١]، أهو الخوف على فوات الفرص وليس الخوف من الموت نفسه؟!

لا أظن أن الموت في نفسه مرير المذاقة، كريه المرآة،ومن ثم جدير بأن يخاف منه خوفا ما بعده خوف في هذه الحياة.

وهذا شوبنهاور، فيلسوف التشاؤم، يطرح أمامنا تساؤلاته المريرة، حول شقاء الحياة وخوف الإنسان من الموت فيقول: لماذا يخاف الإنسان الموت رغم أن أبسط تأمل للحياة يظهر بجلاء أن الحياة « عوز وتعاسة وأسى وبؤس »؟ لماذا يعتبر الموت « الشر الأعظم وأسوأ عقاب يمكن التهديد به » ولماذا يعد الخوف من الموت «الخوف الأعظم»؟ علاوة على ذلك «فإن الإنسان لا يخاف الموت لنفسه فحسب وإنما لأعزائه ويبكي بمرارة رحيلهم، لا بسبب فقدانه إياهم بقدر ما هو إشفاق من النكبة العظيمة التي حلت بساحتهم»[٢].

وهذا الفصل محاولة لاستكناه أبعاد الخوف الخافية في أعماق الإنسان الخائف من الموت.

أولا : سمة الخوف:

تعتبر سمة الخوف من السمات المميزة للطبيعة البشرية، الخوف من شيء ما؛ من ظلام الليل، من مجاهل الصحراء، من أعماق البحار، وأعالي الجبال، من العواصف المدمرة، من الصواعق المحرقة، من الإنسان الآخر بكل أغواره البعيدة، وأبعاده الخفية، من الغد المبهم، وأحداث المستقبل المجهول. نحن البشر نخاف كل شيء حتى ذواتنا نخاف

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ٣٥-٣٦.
(٢) جاك شورون : الموت في الفكر الغربي ص١٨٢.

السماء، وهي منبع الأمن، نخاف الطبيعة، وهي مرقد الراحة، ونخاف إله الآلهه وهو محبة ورحمة[١].

ويرى علماء النفس أن استعداد الخوف غريزي عند الطفل أي أنه من الاستعدادات الفطرية التي يولد مزودا بها، ويبدأ في الظهور عنده في وقت مبكر؛ «فيسأل عن المقبرة، ولأي شيء هي؟ ويسمع أول تفسير للموت»[٢] وتترسب عنده عقدة الخوف، وتشب معه تدريجيا على حسب أحواله النفسية والاجتماعية والعقلية، حتى يصير رجلا.

وهذا المتربص المجهول الذي لا يغالب،المترصد للإنسان في كل آونة ولحظة، وفي كل صوب واتجاه، أليس جديرا بأن يكون أخوف ما يخاف؟ أليس جديرا بأن يفرى كبده ذعرا ورعبا؟

«قيل لخالد ين يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟ قال الأجل، قيل فما أوحش شيء؟ قال الموت[٣]!

فالإنسان كما أنه حيوان مائت، هو أيضا حيوان خائف، وقد قدم القرآن الكريم – أحسن تقديم وأروعه – صورة حسية نشاهدها بأعيننا، ونكاد نلمسها لمس اليد، للخوف من الصواعق التي قد تحمل الموت، وطوفان الهلاك، يقول المولى سبحانه:

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٤].

كأن أولئك الخائفين يودون لو استطاعوا أن يحولوا دون سماع الصواعق (صوت الموت المدوي) ولو بإدخال الأصابع كاملة في آذانهم وهو ما لا سبيل إليه أين النجاة ولا نجاة؟

وقد تكررت عبارة «حذر الموت» في القرآن الكريم دليلاً على ما لا يحتاج إلى دليل، على استكناه العلم الإلهي أغوار النفس البشرية، فيما يتعلق بالموت ومخافة الموت، واجتهاد الإنسان في الحيدة عن سبيله لو استطاع.

---

(١) جبران خليل جبران : دمعة وابتسامة ص٢٧٥ (الأعمال الكاملة).
(٢) سبوك : مشكلات الآباء ص٢٣٧.
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ١١ / ٣٩.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩.

ولما كان الله خالق البشر، ويعلم ما توسوس به نفوسهم، فربما توهم أنه من أجل ذلك، تحدى سبحانه اليهود، في أكثر من آية، أن يتمنوا الموت وهو يعلم علم اليقين أنهم لن يتمنوه أبداً وذلك إذ يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١).

ومن ثم يتضح بجلاء أن القرآن الكريم عبر عن أعماق النفس البشرية التي تنطوي على هذا الخوف الفاجع من الموت.

وفي السنة النبوية عن «أنس بن مالك عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: ما ترددت في شيء كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد منه»(٢). ويقول بشر الحافى (ت٢٢٧ هـ) أحد كبار الصوفية كاشفا عن جوانية الإنسان تجاه الموت: «أنا أكره الموت: ولا يكره الموت إلا مريب»(٣).

ويقول شوبنهاور: «إن الظاهرة النفسية الأولى فيما يتصل به (أي الإنسان) هي» الخوف «منه (أي الموت) فكل كائن حي يخشى الموت مهما كانت مرتبته في سلم التصاعد الوجودي»(٤).

ونخلص من هذا أن الخوف غريزة مركوزة في فطرة الإنسان لا مخلص منها.

ثانيا: درجات الخوف:

خوف الإنسان من الموت ليس على وتيرة واحدة، أو مستوى واحد؛ أي ليس بنسبة واحدة في جميع مراحل العمر، فترمومتر الخوف في صعود وهبوط بحسب هذه المراحل، فبينما يسيطر سيطرة كاملة في مرحلة ما فيطبع السلوك الإنساني بطابع خاص، إذا هو خفيف الوطأة، أو قليل الأثر لا تكاد تحس له وجودا في مرحلة أخرى. فالطفل يخاف،

(١) سورة الجمعة الآية ٦ مثلها في سورة البقرة الآيتين ٩٤-٩٥.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١١ / ٣٤٢.
(٣) السلمى : طبقات الصوفية ص١٤.
(٤) الدكتور عبد الرحمن بدوي : شوبنهاور ص٢٣٦.

ويتساءل هل لا بد أن يموت؟ وقد يتملكه هذا الخوف ويضنيه، إلا أنه أحيانا يفلسف موقفه أو يفلسفه له الكبار أنه صغير، وليس هناك ما يدعو الموت أن يأخذ الصغار أمثاله، فتطمئن نفسه وتتلاشى أو تتوارى فكرة الموت في ثنايا اللاشعور.

أما مرحلة الشباب التي تتميز بالقوة والفتوة، « فهذه المرحلة هي مرحلة الاندفاع، والانطلاق. إن (الشاب) لا يتعب أبدا، يعيش في الحاضر ولا يندم على الأمس ولا يخشى الغد إنه مرحلة الشعور الحاد والرغبة الجامحة فلم تهذبه التجربة بعد بالتكرار ومواجهة الحقائق» [١].

والخوف هنا تنحسر مساحته ويتقلص شيئا فشيئا، حتى ليكاد الشاب يرى أنه في مأمن من خطر الموت القادم إنه يخيل إليه أن الموت إنما يفترس الضعفاء ولا يقوى على الأقوياء، وأن من يختطفهم من الأقوياء أو يتهاوون صرعى تحت أقدامه فأقل ما يقال فيهم: أنهم أناس سيئوا الحظ أخذتهم أحابيل الموت على خلاف ما كان يرجى ويتوقع.

وإذا فكر في الموت فتفكيره موقوت، وخوفه محدود لا سيما إذا نزل بشاب مثله، وذلك لموضع التشابه الذي بينه وبين أولئك الآخرين الذين نزل بهم قدر الموت. [٢]

ويصدق عليه قول أبي العتاهية:

نراع لذكر الموت ساعة ذكره ونغتر بالدنيا فنلهو ونلعب [٣]

فإذا نزل به هو قدر الموت، ونفذ فيه سهمه، فقد التحق بركب سيء الحظ وكانت المصيبة عنده وعند ذويه أكبر من أن تحتمل، لاختلال الحسابات وانعكاس التوقعات.

وأبو بكر الخوارزمي، يصور هذه المحنة، بقلمه البليغ، في رسالة له أرسلها إلى صديق له يعزيه في فقد ابنه الشاب، وذلك إذ يقول: « إنها مصيبة خرجت من كمين الدهر قبل أن يستعد لها بعدد الصبر، وجاءت مجيء البغتة، ووثبت وثبة المسارقة، وغلبت الأيام على

(١) ديورانت : مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٩٣-٢٩٤.
(٢) ابن رشد : تلخيص الخطابة ص١٥٩.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٤٨.

ذلك الحر أطرى ما كان غصنا، وأتم ما كان حسنا، وأبعد ما كان أملاً، وأظهر ما كان جذلاً، حتى كأن المنون أخذته خلسة، وانتهزت فيه فرصة وفقد الشباب الطرى أكثر جزعاً، وكسر العود الرطب أشد وجعاً»[١].

وهكذا يصور للشباب جهله أو غروره أن رحلة العمر طويلة، وأن الأماني الحلوة أمامه وأن علامات الخوف على طريق الموت، ليست جديرة بأن يقرأها أو أن يعيرها – إن أعارها – إلا لفتة قصير، وقد أشار أرسطو إلى هذه الفكرة، فكرة قلة الخوف من الموت عند الشباب إذ يقول: « إن الشر المتوقع في الزمان المتقبل البعيد، ليس يخافه أحد، بدليل أن كل أحد يعلم أنه يموت لا محالة، ولكن لأنه ليس يعلم أنه قريب، فهو لا يخاف من الموت »[٢].

ومع أن الشاب قد يعتقد أن عالمه خال من منغص الموت إلا أنه قد يفاجئ به في عرض الطريق فاردا ذراعيه، وأصدق تشبيه لدرجة الخوف عنده أنها كنجم تغمره أشعة شمس الشباب الوهاجة وكلما خبت هذه الأشعة، كلما تكشف هذا النجم وأخذ في الظهور للعيان.

أما في مرحلة الشيخوخة، فتبرز فكرة الموت كثيراً كثيراً، حتى ليكاد الإنسان يكون محاصراً بها حصاراً محكماً، نظراً إلى التغيرات الكثيرة التي تطرأ إذ ذاك، جسمية كانت، أم عقلية، أم نفسية، أم اجتماعية والخوف أغلب على كل حال على تفاوت في درجاته.

فالتغيرات الجسمية تتمثل في اضمحلال القوة، واستحواذ الضعف، وذهاب النضارة، وجفاف العود، كنخلة تودع الحياة في جوف صحراء قاحلة.

ومن مظاهر التغيرات العقلية التؤدة والتأني، واختفاء التشبث بالرأي والتمرد، حيث كل شيء قابل للنقاش، وفكرة الموت – ليست استثناء – فهي الآن غدت مقبولة، رغم مرارة مذاقها، وتتطلب التهيؤ والاستعداد للقادم المرعب نعم إنها خبرة السنين.

---

(١) رسائل الخوارزمي ص١٢.

(٢) ابن رشد : تلخيص الخطابة ص١٥٧.

ومن التغيرات السيكولوجية: أن كل شيء يصبح في تراجع وتدهور حتى النشاط العقلي، والرغبة في الحياة، تهدأ الانفعالات، وتصبح فكرة الموت ليس لها قوة النفاذ الحاد في اللحم والعظام، لكنها تبدو فكرة مقبولة لنفس قد خبرت جوانب الدنيا، المضحكة المبكية، بأفراحها، وأتراحها، ومن ثم تصنف فكرة الموت وخواطره ضمن الانفعالات غير السارة.

أما التغيرات الاجتماعية، فتمثل في تغير الجو المحيط بالشيخ: الخلان مضوا، والأحباب ذهبوا، والحياة لم تعد هي الحياة، الزمن قد تغيرت ملامحه حتى العادات الاجتماعية تبدلت، بما فيها الأزياء والمآكل والمشارب والمقتنيات والرجل الشيخ نفسه لم يبق منه إلا أقله، وهذا الأقل يكاد لا يمت بصلة إلى ما ذهب – فهو غريب في العالم بل في موطنه وبين أهله يعد أو يكاد يعد من سقط المتاع كما يقول قطرى بن الفجاءة.

ويطرح الفيلسوف الفرنسي « شارل رينوفيه » تصوراً آخر، يقارن فيه بين خوف الشاب والشيخ، إذ يقول: « إن الإنسان عندما يكون شيخاً – وقد اعتاد الحياة – يصعب عليه كثيرا أن يموت، وأن الشبان أكثر خضوعاً للموت من الشيوخ!! » ويعلق الأستاذ عباس العقاد قائلا: أما الواقع. فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف والخوف أقرب إلى طبيعة الضعفاء، ولا فرق في هذه الخلة بين الشيخ والفتى. [١] وليس فيه مناقضة لرأي الفيلسوف الفرنسي.

وأعتقد أن مسألة الضعف واردة فعلاً، والشأن أن هذا الضعف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب فالمقارنة واضحة بين المرحلتين، ولكل مرحلة مستثنياتها إذ إن كل قاعدة لها [٢] شواذها كما يقولون.

إن الشيخ يدخل في نطاق مرحلة حرجة، فتزداد عنده حدة الشعور بالموت ويتراكم الخوف عادة، إذ تصبح مواجهة الموت واردة في « جميع » الأحوال، بعد أن كانت واردة في « بعض» الأحوال.

---

(١) العقاد : بين الكتب والناس ص٤٤٧.

(٢) يطلعنا التاريخ على أسماء كثير من الشيوخ تقبلوا الموت بشجاعة منقطعة النظير وعلى رأسهم سقراط ، والشهيد سيد قطب.

وهذا هو جوهر ما يقوله ديورانت إذ يصور ارتفاع موجات الخوف من الموت عند الشيوخ بقوله: بعد الأربعين نؤثر أن يظل العالم كما هو، وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة إلى لوحة ثابتة، وندرك أول الأمر، دون أن نصدق ثم نصدق بعد ذلك يائسين، إن خزان القوة لا يمتلئ بعد أن نغترف منه أو بعبارة شوبنهاور: أصبحنا نعيش على رأس المال، لا على الدخل، وهذا الاكتشاف يجعل الحياة مظلمة عدة سنين، فنندب قصر الحياة الإنسانية، واستحالة الحكمة أو تحقيق الأمل في هذه الدائرة المحدودة، إننا نقف على قمة التل، ونستطيع أن نرى الموت في أسفله دون أن نجهد أعيننا لم نكن نسلم بوجود الموت قبل ذلك، فهو فكرة مجردة أكاديمية لا يمكن أن يفكر فيها الرجل القوي. وفجأة نجدها أمامنا بغير رحمة، ومهما نحاول البعد عنه فإننا نهبط التل ونقترب منه، ونتلفت إلى الوراء في صفحة الذاكرة إلى الأيام التي لم يسودها وجوده»[1].

وقد نطرح تصوراً آخر للوقوف على درجة الخوف من الموت، يتمثل في المقارنة بين الإنسان الناجح والإنسان الفاشل.

فالأول الذي حقق أهدافه، ونال مآربه، وظفر بأمنياته، وأصبح رجلا ناجحا فخورا بنفسه وتبوأ مكانة اجتماعية مرموقة، وعاش حياته كما يجب، لا شك أن هذا الإنسان يكون عنده قناعة كاملة، إنه أدى دوره المنوط به في الحياة وعليه أن يترك مكانه للآخرين، ومن ثم فهو يواجه الموت بصدر رحب، واقتناع كامل، وارتياح لا بأس به.

والعكس صحيح، فالإنسان الفاشل، لم يجن ثمار أيامه، ولم يحقق طموحه أو يظفر ببغيته أو منشوده من الحياة، لذلك يكون متبرماً متمرداً ويعيش دائماً على أمل الغد الآتي في رحم الغيب، عله يحقق ما استعصى عليه في الأمس، ولكن الحياة لا تعطيه ما يرجو، وتخيب آماله وتعانده،لذلك يصبح موقفه من الموت خوفا مستمراً وهلعاً شديداً، وألما ممضاً، إذ إن الموت سيضع نهاية لحياته، وهو يعيش على أمل أن يحقق شيئا ما في الغد القريب.

(١) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٩٩.

وربما يكون هذا ما قصده مفكر معاصر إذ يقول:

«يبدو لي أن الشخص الذي يحب الحياة، ويعرف كيف يتذوق ماهيتها، عالما أنها تهب ذاتها له دائما بجملتها لا يمكن أن يخشى الموت لأنه يمتلك الحياة امتلاكاً كاملاً.

وأما ذلك الذي يرفض الحياة أو يبغضها، لأنه يظن أنه لم يحظ منها بشيء فإنه لا بد بطبيعة الحال أن يخشى الموت، ولعل هذا هو السبب في أن الجزع من الموت هو أقوى ما يكون عند الساقطين المتبرمين بالحياة، بينما هو لا يكاد يقض مضجع أولئك الذين يشعرون بقيمة الحياة»[1].

خلاصة القول أن الخوف من الموت يتطور مع الإنسان في شتى مراحل حياته، ويبلغ عادة أقصى درجاته، عندما يوغل الإنسان في العمر، وإن كان قد يوجد من يستأنس به إذ ذاك فهو يبدأ هنا يسيراً مستبعداً أو محتملاً، ثم يتحول في الأكثر إلى عبء مهول مجهول لا يرحم يطارد الإنسان، وخاطر ملح مروع يلح على وجدانه، يقلق نهاره، ويؤرق ليله، ويلون الحياة بطابع مأساوي، لا سيما عند ذوي النفوس المرهفة الحساسة، التي تخاف المجهول، بقدر ما تتوق إلى اكتشاف كنهه وسره.

ثالثا: لماذا نخاف من الموت؟

تمهيد

لا أحد ينكر أننا في الجملة جميعا نخاف من الموت. ولهذا الخوف مظاهر متعددة، ربما يكون أهمها: طرد هذه الفكرة من البداية بمجرد ظهورها في أفق العقل، ووأدها حينما تظهر في حيز الوجود، وتعلق الإنسان بالأمل الباسم في عمر مديد.

هذا هو القاسم المشترك بيننا جميعا – (الخوف) من الموت.

لكن لماذا نخافه؟ عند كل واحد منا أسبابه الكافية، والصادقة من وجهة نظره هو على الأقل.

وقد لخص أحد أشراف العجم بعض هذه الأسباب، حين داهمته علة الموت فقال:

---

(١) الدكتور زكريا إبراهيم : تأملات وجودية ص٢١٤.

«ما ظنكم بمن يقطع سفراً قفراً بلا زاد، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ويقدم على حكم عادل بلا حجة!» [١].

وقريب من هذه الأسباب ما جرى على لسان حجر بن عدي، حينما أحضر لكي يقتل، فسأل قاتليه أن يمهلوه حتى يصلي ركعات، وظهر منه جزع شديد فقال قائل: أتجزع؟ فقال: وكيف لا أجزع! سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور، ولست أدري أيؤديني إلى جنة أم إلى نار » [٢].

وهذه الأسباب وغيرها، هي مدار حديثنا فيما يلي، إذ نحاول أن نتعرف المسوغات الأساسية لخوف الإنسان من الموت:

١- غريزة حب البقاء وكراهية الفناء:

من أبرز السمات العامة المميزة للشخصية الإنسانية، حبها للبقاء وأنها على ذلك جبلت،فهذا الحب غريزة أساسية،أصيلة وراسخة في الفطرة البشرية، وضد البقاء الفناء وما دام البقاء محبوباً للإنسان، فضده وهو الفناء، مكروه.

ويعلل إخوان الصفاء هذه الغريزة « بأنه يوجد في المعلول دائما شيء من العلة، دلالة دائمة عليه، ولما كان الله علة الوجود لذاته، وهو دائم البقاء لا يعرض له شيء من الفناء، جبلت الموجودات على حب البقاء، وكراهية الفضاء » [٣].

ويرى الإمام الغزالي أن المحبوب الأول للإنسان هو نفسه وذاته، أو الأنا الشخصية، ومعنى حبه لنفسه، أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفره من عدمه وهلاكه، إذ إن المحبوب للطبع هو الملائم للمحب وأي شيء أتم ملائمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه «فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت» [٤].

---

(١) المبرد : الكامل جـ٢ / ١٦٦.

(٢) المبرد : الكامل جـ٤ / ٨٢ وقد أورد الاصفهاني قصة مقتل حجر بن عدي كاملة (الأغاني جـ١٧ / ١٣٣- ١٥٢).

(٣) عمر الدسوقي : إخوان الصفا ص١٦٦.

(٤) الإحياء جـ٤ / ٢٩٧.

ثم يعود الإمام الغزالي ليؤكد على هذه الفكرة: «تأصل حب البقاء في النفس البشرية» بأنها هي السبب الأساسي لكراهية الفناء، حتى لو أن الإنسان أذا دعى إلى الموت بدون ألم أو سكرات، أو حتى بدون ثواب وعقاب، فإنه لن يرضى بذلك، وسوف يكون كارها لهذا الموت «فالهلاك أو العدم ممقوت، ودوام الوجود محبوب»[١].

ويتأمل أبو حيان التوحيدي مسألة غريزة البقاء، ويرى فيها ما رأى الإمام الغزالي محاولا أن يستشف السر وراء الملائمة المشار إليها في كلامه، إذ يقرر أن البقاء نفسه أمر مختار ومراد، لأنه يعطى للشخصية الإنسانية وجودا متصلا ومستمرا، والوجود كريم وشريف، لذلك فهو مرغوب، وضده العدم، رذل خسيس والإنسان عادة يتخلق بالتوجه إلى الشيء الكريم، والجنوح عن الخسيس[٢].

ولا يقنع أبو حيان التوحيدي بهذا، بل يحاول أن يستشف السر وراء الستر أي سبب غريزة البقاء فيقرر أن سبب هذا العشق، هو أن الإنسان جزء من هذا العالم: «مبدؤه منه ومنشؤه فيه، وتولده عنه»[٣]، ومن ثم فهو جزء حي متوتر قلق يرتبط معه برباط لا ينفصم هو هذا الحبل السري الموصول برحم العالم فيستقي منه المادة التي تقيم أوده، كما تستمد عروق الأشجار ماءها من أعماق الأرض.

والنتيجة الحتمية، قوة الجذور العميقة التي تربط الإنسان بهذه الأرض وهذا العالم بأكمله.

٢- مباهج الحياة:

إذا كان حب الحياة غريزة، فإن هذه الغريزة تقوى وتستفحل، كلما تعرف الإنسان شتى جوانب الحياة ومارسها في سلوكه اليومي وألم بطيباتها، ومباهجها، حتى خلال أوائل مراحل الإدراك. ثم يتطور الحب إلى تعلق فعشق فهيام.

الحياة في مجملها جميلة حلوة خضرة، كثيرة مباهجها، وفيرة خيراتها لجاذبيتها نكهة

(١) المصدر السابق ص٢٩٧ ،ص٤٥٦.
(٢) الهوامل والشوامل ص٧٤.
(٣) الهوامل والشوامل ص٢٤٩.

عجيبة خلابة. والإنسان يعب منها بلا كلل ولا ملل، لا يتوقف نهمه عند حد من مشرب أو مأكل أو جنس أو ما سوى ذلك من متاعها الذي لا يكاد ينفذ ما دامت به طاقة، بل يغوص إلى أعماقها، ينعم بما أفاض الله عليه من نعم، وما منحه من عطاء، باحثا عن المزيد.

وقد تحدث القرآن الكريم عن العطاء الإلهي للإنسان في هذه الحياة وندبه إلى أن يتمتع بهذه النعم الإلهية في اعتدال وتوسط، فقال عز من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[١].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٢].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣].

وتصف السنة النبوية، في شمول وإحاطة، مباهج الحياة المتعددة، فيقول الرسول ﷺ: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**»[٤].

ويقول: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[٥].

ويقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي: المال»[٦].

هذا المال، وشدة حرص الناس عليه، وتقاتلهم للظفر به في الدنيا، يعد – مع ما يعد – من أسباب جزع القلوب لتركه. وهذا أيضا ما ملأ قلب مالك بن الريب من الهم

(١) سورة الأعراف الآية ٣١، ٣٢.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤، ٣٣.
(٣) سورة القصص الآية ٧٧.
(٤) رياض الصالحين ص٢١٣.
(٥) رياض الصالحين ص٢١٣.
(٦) المصدر السابق ص٢١٩.

والحزن حينما دنت منيته فأنشد يقول:

غداة غد يا لهف نفسي على غد ... إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالد ... لغيري وكان المال بالأمس ماليا[١]

ويقول أبو العتاهية في وصف جمال الدنيا:

لعمر أبي إن الحياة لحلوة ... وللموت كأس يالها ما أمرها
وإني ممن يكره الموت والبلى ويعجبه ... ريح الحياة وطيبها[٢]

والشاعر على زهده، وتجافيه عن أكثر ملذات الحياة، فإنه يتحدث عنها حديث خبير، لأنه خبر مذاقها الحلو في بدء حياته، وتقلب في مباهجها وثمل من كأسها. وهذا ما أشار إليه سقراط لمحاوره: إذا رأيت رجلا يجزع من اقتراب الموت كان جزعه دليلا قاطعا على أنه محب للجسد، وللمال وللقوة[٣].

ويصفها – أي الدنيا – أبو حيان التوحيدي الذي حرم من لذاتها بعد أن رآها رأي العين، وتاق إليها، فلم يظفر بكثير أو قليل، وقد أوصدت في وجهه الأبواب، وتحاشاه الوزراء والأمراء فيقول: إن الحياة محبوبة لا سيما إذا كان معها صحة البدن، واعتدال المزاج، ووجود الكفاية من الوجوه الحسنة الجميلة، هذه الأشياء جميعا تصلنا بأسباب قوية بالسعادة القصوى وتحصيل الصورة المكتملة، وهذا كله محبوب يؤثره الإنسان، ومن ثم فالموت رديء مكروه، لأنه يقطع طريق الإنسان نحو استكمال السعادة وإتمام الفضيلة ويفوته أمراً عظيماً، فالجزع من الموت في هذه الحالة واجب وسببه بين واضح[٤]. إذا فمن حق الإنسان الذي تمتع بهذه الطيبات، وذاق حلاوتها، ومرح في حدائق الحياة الوارفة، وتقلب في ظلال وثمار رياضها الغناء، أن يخاف أي خوف إذا حان رحيله إلى المصير المجهول

(١) القالي: ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٧.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٢٠٨.
(٣) محاورة فيدون ص١٢٩ (محاورات أفلاطون).
(٤) الهوامل والشوامل ص٧٤ بتصرف.

٣- فراق الأهل والأحباب:

من عوامل حب الحياة، وعشق الإنسان لها، وتشبثه بجذورها الواهية، هذه الروابط الروحية القوية التي تربطه بالآخرين وفي مقدمتهم أهله الأقربون، وأحباؤه وأصدقاؤه، وقد جمع القرآن الكريم بإشارة وجيزة بين هذا السبب والذي قبله، إذ يقول:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١].

ولأن المولى سبحانه يعلم أغوار النفس البشرية، وتعلقها الشديد بأسباب الحياة، فقد عاد إلى ذكر هذه الأسباب المتنوعة مجتمعة، وبين مدى عشق الإنسان لها، وولهه بها، حتى إنها تشغله عن أعظم أمر إلهي حيال الجماعة المسلمة، وهو الجهاد في سبيل الله. فقال عز اسمه مصدرا بالأهل والأحبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

وقد عبر الشعراء بوضوح عن هذا السبب من أسباب خوف الموت. فهذا امرؤ القيس، يفتش في نفسه عن السبب الأساسي لخوفه من الموت، فلا يراه الموت ذاته، بل الموت بعيدا عن أرض أهله وأحبائه!! وذلك إذ يقول:

ولو أنى هلكت بأرض قومي لقلت الموت حق، لا خلودا[٣]

وهذا السبب بعينه هو الذي أجرى دموع مالك بن الريب، وزاده هما على هم، وهلعا على هلع استمع إليه إذ ينتحب:

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة يد الدهر معروفا بأن لا تدانيا
أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدنني بكين وفدين الطبيب المداويا

(١) سورة الكهف الآية ٤٦.
(٢) سورة التوبة الآية ٢٤.
(٣) ديوان امرؤ القيس ص٨٧.

وما كان عهد الرمل عندى وأهله ذميما ولا ودعت بالرمل قاليا
فمنهن أمي وابنتاي وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا[١]

وهذا أبو العتاهية لم تغب عنه أيضا – وهو يدعو إلى طريق الزهد والتجافي عن ملذات الحياة – أسباب تعلق الإنسان بها، وكراهيته للموت فتراه منذره بأنه سيخلف ذلك كله وراءه:

إذ يقول:

غير الموت شيء جليل يترك الدور خرابا ويبابا[٢]

ويقول:

ولقد رأيت الموت يفرى تارة جثث الملوك وتارة يتخبط
فتآلف الخلان مفتقدا لهم ستشط عمن تألفن وتشحط
وكأنني بك واهي القوى نضوا تقلص بينهم وتبسط[٣]

أما الفلسفة في هذا المجال، فبحرها متلاطم الأمواج، وروافدها مترعة بالآراء والأفكار.

وأول ما تقابله في لججها العميقة، الشيخ الرئيسي ابن سينا، إذ إنه أفرد رسالة كاملة للبحث عن كيفية «دفع الغم من الموت»، وحلل فيها الأسباب المختلفة لمخاوف الإنسان منه وعدد منها «الأسف على ما تركه من مال وولد وأهل»[٤].

ولكن الذي ضرب على هذا الوتر، فأثار الشجون، هو قديس المسيحية وفيلسوفها الكبير، القديس أوغسطين إذ كان خاطر فراق الأحبة من أكبر المنغصات في حياته، وهو يسجل ذلك في «اعترافاته» إذ يقول:

«كنت تعسا ككل من يرتبط بصداقات مع من حتم عليه أن يموت، فإنه يشعر لدى

(١) ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٨.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٥٣.
(٣) المصدر السابق ص٢٤٤ ، وتشحط أي تبعد.
(٤) رسالة في دفع الغم من الموت ص٤١.

فراقه بحزن عميق، ويحس بالشقاء الذي سوف يحدثه فراقه فيه قبل أن يفقده، إن حياة الواحد بدون الآخر، أصعب عليه من الموت بعينه كلما أحببت صديقي، زادت كراهيتي للموت، وخوفي منه، لأنه حرمني إياه كعدو قاسي جدا، يتأهب لابتلاع جميع البشر بطرفة عين كما ابتلع صديقي»[١].

ويرى باحث معاصر أن من هذه العوامل « ما يشعر به (الإنسان) من لذعة إذا تصور فراق الأهل والخلان ويعتقد أن هذا النوع من الخوف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب[٢].

ويبالغ شاعر معاصر كان يعيش بيننا منذ أمد قريب، هو الشاعر كامل الشناوي (ت ١٩٦٥م) إذ يرى – بعد طول تأمل وكثرة تساؤل – رجوع الخوف من الموت إلى هذا السبب وحده، وذلك إذ يقول: « لماذا نفزع من الموت وهو حقيقة لا تقبل الجدل؟ ثم يجيب: « إن فزعنا ليس من الموت، ولكن من الفراق ... فراق من نحبهم من الأعزاء علينا »[٣].

٤- الخوف من آلام الموت:

من أخوف ما يخاف منه الإنسان تلك المعاناة التي يعانيها عند الموت، وما هنالك من آلام رهيبة وكرب شديد، وكم شهدنا نحن، ونشهد من ذلك عند وداع أحبابنا في اللحظات الأخيرة من حياتهم، على بعد البون من التجربة الحقيقية والمشاهدة الجانبية

إنها للحظات أو ساعات شديدة الوطأة لا يعلم إلا الله مدى ما فيها من معاناة، والذي يبدو لنا مظاهر- ليس إلا- في تقلص الوجوه وذعر العيون وارتجاف الأوصال.

ولكي تتضح أبعاد هذه الصورة المؤلمة، نطالع بعض الآيات القرآنية التي رسمت صورة حقيقية لكرب الموت وهوله على النفس البشرية وعلينا أن نتدبر دلالة هذه الآيات، إذ كان مصدرها هو العليم الخبير ببواطن النفس البشرية، التي تتكشف تماما أمام خالقها

(١) الاعترافات ص٦٤.
(٢) أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٤ ص٢٠٧.
(٣) بين الحياة والموت ص٥٤.

الكريم في جميع حالاتها، وفي حالة الموت بخاصة يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ..﴾[١].

- ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[٢].
- ﴿تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٣].
- ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٤].
- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[٥].

- مشهد الاحتضار بذاته ترتجف له النفس البشري، وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا[٦].

وهذا المشهد له أبعاد متعددة صورتها الآيات الكريمة: فالخوف والهلع هذا الذي يسيطر على النفس عند معاينة علامات الموت، والهول المهول هناك في حشرجة الصدر، وتقطع الأنفاس، وشدة النزع الذي يقول الرسول ﷺ في وصفه أنه: مثل سحب الشوكة على ثوب الحرير.

وتأتي أخيرا «سكرة الموت» لتعبر بأوجز عبارة عن مدى انهيار الإنسان إذ ذاك وذهاب قوة احتماله، وليس يخفى علينا أنه – تقريبا – نفس التعبير الذي استخدمه الرب سبحانه في وصف هول يوم القيامة مما يزيد الصورة رعبا وإيلاما ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[٧].

وتقول الروايات أن عمرو بن العاص – حينما أخذته سكرات الموت في مشهد الاحتضار، وأصبحت الأنفاس معدودة – قال: « أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض،

(١) سورة الأنعام الآية ٩٣.
(٢) سورة الأنفال الآية ٦.
(٣) سورة الأحزاب الآية ١٩.
(٤) سورة محمد الآية ٢٠.
(٥) سورة ق الآية ١٩.
(٦) في ظلال القرآن جـ٥ / ٤٤٩.
(٧) سورة الحج الآية ٢.

وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفس من خرت إبرة »[١].

وقيل: «كان سفيان الثوري إذا قال له بعض أصحابه إذا سافر: أتأمر بشغل؟

يقول: إن وجدت الموت فاشتره لي! فلما قربت وفاته كان يقول: كنا نتمناه فإذا هو شديد!! »[٢]

وهذا هو الذي يشير إليه أبو العتاهية إذ يقول:

كل نفس ستقاسي مرة ... كرب الموت فللموت كرب[٣]

وللمرء عند الموت كرب وغصة ... إذا مرت الساعات قرين عهدها[٤]

أما ابن سينا فيذكر «ألم الموت» من ضمن العوامل المخوفة للإنسان في رسالته آنفة الذكر.

وحجة الإسلام الإمام الغزالي يغوص في أعماق النفس البشرية، ويكشف عما هي جديرة به لو كانت تعرف كنه سكرات الموت، إذ يقول: « لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب، سوى سكرات الموت بمفردها، لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته»[٥].

وهكذا نرى بلا شك أن آلام الموت وسكرته، وعذاب خروج الروح من الجسد هي من بين العوامل التي تقود الإنسان – طوعاً أو كرهاً – إلى الخوف من الموت.

٥- خطايا الإنسان في الحياة:

ميول الإنسان الشريرة، واستعدادته الكامنة لفعل الشر، أحيانا تتغلب على جوانبه الخيرة. والإنسان وهو على طريق الحياة يعتلج في داخله صراع دائم بين الخير والشر، وكثير من الناس ينحرفون عن الجادة، ويهبطون مع جاذبية المادة إلى قرار سحيق،

---

(١) المبرد: الكامل جـ١ / ٢٦٧.
(٢) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩٠.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٤٣.
(٤) المصدر السابق ص١٥٠.
(٥) الإحياء جـ٤ / ٤٦١.

فيرتكبون الكثير من المعاصي، ويحملون أوزارا، بما تصبح علامات سوداء تقض مضاجعهم، وأشباحا مخيفة تطاردهم ليل نهار، وأمثال هؤلاء الذين استيقظت ضمائرهم، وانتبهت نفوسهم يجزعون من الموت جزعا شديدا كلما تمثل لهم ما وراءه من قدوم على الحكم العادل الذي يقول في كتابه المحكم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

وقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن وعيد الله سبحانه لمرتكبي الكبائر ومقترفي المعاصي، وتنبيه الإنسان لغواية الشيطان ومكائده وتذكيره بمكره السابق بآدم أبي البشرية، ثم يحذرهم من أفاعيله وأباطيله، مذكرهم بيوم الحساب حيث لا تنفع معذرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً﴾[٢].

- «﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣].

- وفي السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: «قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق»[٤]. وإذا انتقلنا إلى الشعر، نقرأ في هذا الصدد ما يقوله أبو العتاهية:

كل نفس ستقاسي مرة ... كرب الموت، فللموت كرب
وحساب وكتاب حافظ ... وموازين،ونار تلتهب
وصراط من يقع عن حده ... فإلى خزي طويل ونصب[٥]

(١) سورة الزلزلة الآية ٧، ٨.
(٢) سورة النساء الآية ٩٧.
(٣) سورة المؤمنون الآية ٩٩.
(٤) رياض الصالحين ص٣٦٩.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص٤٣.

وكبار رجال التصوف – على ما هم عليه من الزهد والتقى – راعهم هذا السبب، من أسباب الخوف من الموت، وتوقفوا أمامه طويلا، فأدلوا فيه بدلوهم:

«قال رجل لبشر الحافى (ت٢٢٧هـ): أراك تخاف الموت! فقال: القدوم على الله عز وجل شديد»[١].

ويقول ابن فورك لأحد عواده في مرضه، وقد دمعت عيناه: تراني أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت[٢].

وسئل الشبلي (ت ٣٣٤ هـ) لما تصفر الشمس عند الغروب؟ فقال: لأنها عزلت عن مكان التمام، فاصفرت لخوف المقام، وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا أصفر لونه، لأنه يخاف المقام[٣].

وابن سينا في الرسالة التي وقفها على مناقشة مخاوف الإنسان من الموت يقول: « من يخاف الموت لأجل العقاب، فليس يخاف الموت، بل يخاف العقاب، والعقاب إنما يكون على شيء باق منه بعد الموت فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت، ومن خاف عقوبته على ذنب وجب عليه أن يحترز ذلك الذنب ويجتنبه»[٤].

ولا ينسى هذا أبو حيان التوحيدى وهو بصدد البحث عن أسباب جزع الإنسان من الموت فتراه يقول: إن من قوى ظنه واستحكمت بصيرته في عاقبته ومعاده، ولكنه لم يقدم ما يعتقد أنه يسعد به، ولم يتأهب بأهبته، ولا استعد له عدة، فهو يكره الموت، ويجزع منه ولا يسترسل إليه»[٥].

والحقيقة أن هذا ما نراه في حياتنا اليومية، والعيان أصدق شاهد، فكثيرون هم الذين نراهم يتملكهم الخوف والجزع من الموت، بعد أن أجرموا في حق أنفسهم وحق

---

(١) الرسالة القشيرية جـ١ / ٣٩١.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) الرسالة القشيرية جـ١ / ٣٩٧-٣٩٨.
(٤) رسالة في دفع الغم من الموت ص٤٠.
(٥) الهوامل والشوامل ص٧٥ ، وأيضا أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٤/ ٢٠٧.

مجتمعاتهم، ولم يقدموا لغدهم شيئا من الأعمال الطيبة، لذلك زادت حسرتهم، وقويت هواجسهم، وسيطرت المخاوف على قلوبهم وعقولهم. لما استيقنوا من أن وراء ذلك كله الحساب العسير والعقاب المرير.

٦- تصور الإنسان لحاله في القبر:

تعد عملية التصور، إحدى العمليات العقلية الباهرة التي يستطيع العقل الإنساني بواسطتها رسم أو استعادة أية صورة لأي حقيقة من حقائق الحياة أو ما بعدها رآها أو سمعها، أو قرأ عنها.

وعادة ما يرى الإنسان، سلسلة الأحداث المخيفة التي تلم بالميت بعد أن يموت، وربما كانت الواقعة لا تعنيه إذا توقفت الأمور عند حد نزولها بالغير، بيد أن المشكلة ليست بهذه البساطة إذ إنه يدرك إدراكاً كاملاً، أن ما يلم بالغير اليوم سيلم به غداً، وكل زاد الأحياء من تصورها إنما هو مستفاد من مشاهدات سطحية لقبر نبش، أو قراءة عابرة، لقصص مكتوب أو شعر منظم، أو عظات تتناقل ينوء بها القلب.

فبعد الموت والدفن تبدأ سلسلة تغيرات عظيمة تصيب الجسم الإنساني ليس أقلها هجوم هوام الأرض عليه، واقتحام الدود أركانه، ثم ما أسرع أن يتحول هذا الجسم الذي كان بالأمس يفيض حيوية ونشاطاً، إلى كومة عظام نخرة، تعافها النفس وتقذى بها العين، ويألم لها الخاطر. حتى لقد تعلل بهذا في استحالة المعاد الجثماني منكروه من الفلاسفة.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾(١)، **﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾** (٢).

هذه الصورة المروعة لحالة الإنسان في قبره، لا تنفك تحتل مساحات كبيرة في عقله وفكره ما دام حيا، فيدرك أول ما يدرك أن الأمر جد عظيم، ويبدو له الموت بشعا مخوفا، لأنه بوابة القبر الذي هذا حال ساكنيه، فكيف بالقبر نفسه، وصدق رسول الله ﷺ: « ما

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٥.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٨٢.

رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه »[١].

قال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم بعد الدفن حفرته، تقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة، وبيت الغربة، وبيت الظلمة[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز، وهو ينظر إلى القبور: «هذه قبور آبائي بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا لذاتهم! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، وأصاب الهوام أبدانهم»[٣].

أما الشعر والشعراء هنا، فلهم موقفهم، ورؤاهم الخاصة، ومالك بن الريب الذي تعرفنا عليه سابقاً يعاود سكب عبراته الحارة على نفسه، وهو يتأمل حاله بعد الموت، وحيدا في حفرة مقفرة بين التراب والحجارة، تعصف بها الريح، وقد تقطعت أوصاله وبليت عظامه حتى عادت إلى سيرتها الأولى حفنة من التراب:

وقوما على بئر السمينة أسمعا بها ... الغر والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتماني بقفرة ... تهيل على الريح فيها السوافيا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعد ما ... تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
إذا مت فاعتادى القبور وسلمى ... على الرمس اسقيت السحاب
على جدث قد جرت الريح فوقه ... ترابا لسحق المربياني هابيا[٤]
رهينة أحجار وترب تضمنت ... قرارتها منى العظام البواليا[٥]

أما أبو العتاهية الذي يصحبنا في هذه التأملات فهو دائم التذكير بالوحدة الموحشة والأصدقاء الجدد من حشرات الأرض، ودود التراب:

---

(١) الإحياء جـ١ / ٢١٠ ، قال الترمذي هذا حديث حسن غريب ، سنن الترمذي جـ٤ / ٥٥٤.
(٢) الإحياء جـ١ / ٢١٠.
(٣) المصدر السابق ص٢١١.
(٤) ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٧ ، السمينة موضع ، والمرنباني كساء من خز ويقال مطرف من وبر الإبل ، هابيا : هبا يهبو وهو التراب.
(٥) القالي : ذيل الأمالي ص١٣٨ ، ورهينة أحجار : أي في القبر على الترب والحجارة القرارة : بطن الوادي حيث يستقر الماء فضربه مثلا للقبر وبطنه.

كـأن الأرض قـد طويـت عليـا ... وقـد أخرجـت ممـا في يديـا
كـأني يـوم يحثـو الـتراب قـومي ... مهـيلا لم أكـن في النـاس حيـا
كـأن القـوم قـد دفنـوا وولـوا ... وكـل غـير ملتفـت إليـا
كـأني صرت منفـردا وحيـدا ... ومرتهنـا هنـاك بـما لديـا [١]

فإذا وقف أمام القبور تساءل، من باب تجاهل العارف، وتوجع المفجوع:

إني سألت القبر ما فعلت بعدي وجوه فيك منعفرة فأجابني: صيرت ريحهم تؤذيك بعد روائح عطره وأكلت أجساداً منعمة كان النعيم يهزها نضرة لم أبق غير جماجم عريت بيض تلوح وأعظم نخرة[٢].

ويقول أبو العلاء المعري:

كم صائن عن قبلة خده ... سلطت الأرض على خده[٣]

ونختم صحبتنا مع الشعراء؛ بالشاعر الفيلسوف عمر الخيام (ت١١٢٣م) وهو يتأمل جمال الحياة، وبهجة الوجود، فيدرك أن مصدر هذا الجمال هو قبح الموت.

فالورود التي تحيط به بحمرتها القانية، ربما استقت ماؤها من دم أحد الملوك.

والزهور العطرة التي تملأ حدائق الحياة، لعلها نبتت فوق رأس ميت كان يوما رائع الجمال.

وهذه الحشائش الخضرة اليانعة التي تسر الناظرين، من يدري؟؟ من أي شفة إنسانية، أو مهجة عذراء، كانت يوما رائعة الحسن.

ها غمام السماء يسكب سكبا
كالأحبا على قبور الأحبا
عبرات يزهو بها المرج خصبا

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٨٠.
(٢) المصدر السابق ص٢٠٤.
(٣) القصيدة الحكيمة (نقلا عن كتاب أنيس المقدسي : أمراء العصر العباسي ص٤٢٦).

وكما شاقنا وراق العيانا

زهر روض نرنو إليه الآنا

ليت شعري إذ نحن في الروض زهر

أي عين نروقها إعجابا [١]

* * *

حيث تلقى الورد النضير الجميلاً

فمليك هناك خر قتيلاً

فادرإما قبلت خدا أسيلاً

ولكم خلت ما اقتطفت بنفسج

وترفقت أنه بين عوسج

وهو خال نام بخد فتاة

بدر حسن في ظلمة القبر غابا [٢]

* * *

وثغور الأزهار ياذا الحبيب

من ثغور سناؤها محجـوب

لك قلب وفي الأديم قلـوب

ضجعة اللطف فوق هذا النبات

فهو نام من أكبد النائمات

في مهود فيها السبات عميق

(١) عمر الخيام : رباعيات عمر الخيم ص٥٣.
(٢) عمر الخيام : رباعيات عمر الخيام ص٥٤.

لا مفيق منه بهن أهابا [١].

ولعلي أوفي ما يتصل بهذا السبب، تلك الصورة الواضحة، المعالم التي يرسمها الإمام الغزالي على ضوء تصوره لتفاصيل دلالة الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ..﴾ وذلك إذ يقول:

«معناه أن يسلب روحه وسمعه وبصره وقدرته وحسه، فيعود جمادا كما كان أول أمره، لا يبقى إلا شكل أعضائه، وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قذرة.. ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاؤه فيبتدي بحدقتيه فيقلعهما، وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان. وأحسن أحواله أن يصير ترابا يعمل منه الكيزان والبنيان» [٢].

***

(١) عمر الخيام: رباعيات عمر الخيام ص٥٧.

(٢) الإحياء جـ٣ / ٣٥٩ وأيضا جـ٤ / ٤٥٧.